ديزيره سقّال

صانِعُ الأَحْلامِ



دار النديم

ISBN: 978-9953-548-80-
9 789953 548807

www.dfl.com.l

صانعُ الأَحْلامِ

د. ديزيره سقّال

صانعُ الأَحْلامِ

دار النديم

تصميم: DFL

دار الفكر اللبناني هو الموزع الوحيد لـ دار النديم

المركز الرئيسي: كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا - الطابق الأول - بيروت - لبنان
هاتف: 780974 3 961+ (644416 - 655500 - 630906) 1 961+
فاكس: 630757 1 961+
ص.ب.: 11-4699 بيروت لبنان رياض الصلح 11072170 بيروت لبنان
البريد الإلكتروني: info@dfl.com.lb
الموقع الإلكتروني: www.dfl.com.lb

طبعة 2015

- ١ -

«"سامرُ"، "سامرُ"، أينَ أنتَ؟»

كان "سامرٌ" يسمَعُ هذا الصوتَ يأتيه من بعيدٍ، ولكنّهُ لا يُجيبُ. مَنْ يُنادي؟ مَنْ يُريدُ أَنْ يُجيبَهُ "سامِرٌ"؟ تَلَفَّتَ الولدُ يمينًا وشمالاً، ولكنّه لم يَجِدْ أحدًا. نظرَ حولَهُ مُجَدَّدًا،

ولكنْ بلا جَدوى: لا أَحَدَ سِواهُ في الطريقِ الفارِغةِ، وهوَ لا يزالُ يسمَعُ الصوتَ يأتيهِ مِنْ بَعيدٍ، معَ صدًى بَسيطٍ، ولكنَّهُ مَسْموعٌ، كأنَّ شخصًا يَبْحَثُ عنهُ، ولا يَراهُ.

والصوتُ الذي يَسمعُهُ "سامرٌ" صوتُ امرأةٍ، لا صوتُ رجلٍ. يُشْبِهُ صوتَ صديقَتِهِ "ساميةَ" التي تَجْلِسُ قُرْبَهُ في الصفِّ، وهيَ، مِثْلَهُ، في التاسِعةِ من العُمْرِ، ولكنَّها لطيفةٌ

وذكيَّةٌ، يراها كلَّ يومٍ في المدرسةِ، وأحيانًا يدرُسُ مَعَها، ويُساعِدُها إذا احتاجَتْ إلى دَعْمٍ في دَرْسٍ ما، أو كانَتْ بحاجَةٍ إلى أَنْ يَشْرَحَ لها ما يَعْرِفُ، وِفْقَ مَقْدِرَتِهِ، متى وَجَدَتْ نفسَها لم تفهَمْ مسألةً من المسائلِ الحِسابيّةِ. نعمْ، هذا الصوتُ ذو الصدى البعيدِ يُشبهُ صوتَ "ساميةَ"، ولكنَّه أعمَقُ منها، رُبَّما لأنّه في مكانٍ مُقْفَلٍ، أَوْ لأَنَّهُ بعيدٌ، لا يَستطيعُ "سامرٌ" أن يُمَيِّزَهُ بِدِقَّةٍ...

ثُمَّ لم يَعُدْ "سامرٌ" يَسمعُ شيئًا. سَكَتَ الصوتُ. اختفى. تَلَفَّتَ "سامرٌ" حولَهُ في الطريقِ الفارغةِ. لم يجدْ أحدًا. مَنْ صَرَخَ باسمِهِ؟ لا جوابَ. كُلُّ ما حولَهُ صامِتٌ، وهذا ما أثارَ فيهِ قلقًا لأنَّهُ تَنَبَّهَ إلى أنَّهُ وَحْدَهُ في المكانِ الفارغِ، الواسِعِ، والظلامُ يُحيطُهُ من كُلِّ جانبٍ. يا أللهُ، ما أصعبَ هذا المَشْهَدَ! "سامرٌ" لا يُحِبُّ الوَحْدَةَ، ولا يُحِبُّ

الظلامَ الشديدَ أيضًا. "سامِرٌ" يُحِبُّ النورَ والأَضْواءَ المُتَلألِئَةَ. الظلامُ يُثيرُ قَلَقَهُ، وخصوصًا إذا كانَ وحيدًا فيهِ، لا لأنَّه يَخافُ، بَلْ لأنَّهُ لا يَستطيعُ أن يُمَيِّزَ فيهِ شيئًا.

قالَ "سامرٌ" في نَفْسِهِ: «لا بدَّ لي مِنْ أنْ أخرُجَ مِنْ هذهِ الطريقِ الضَيِّقةِ!» ومَشَى. لَمْ يَعْرِفْ إلى أينَ يَسيرُ، ولكنَّهُ فَضَّلَ السَيرَ على الوقوفِ في المكانِ نَفْسِهِ مِنْ غيرِ

أَنْ يفعلَ شيئًا. مشى وَلَمْ يَتَلَفَّتْ حولَهُ، وَلا أَصْغَى لَعَلَّهُ يَسمعُ صاحبَ الصوتِ يُناديهِ مُجَدَّدًا... مَشى... وكانَ كلُّ ما حَوْلَهُ غارقًا في العَتمَةِ، لا يَستطيعُ أَنْ يُمَيِّزَ فيهِ شيئًا.

وفجأةً فتحَ "سامرٌ" عينَيْهِ: لَقَدْ كانَ يَحْلُمُ! نَظَرَ مِنْ حَوْلِهِ: الغرفةُ غُرْفَتُهُ نَفْسُها، وَأَغْراضُهُ كُلُّها حَيْثُ تَرَكَها قبلَ أَنْ ينامَ: خزَانَةُ ثِيابِهِ،

وطاولتُهُ التي يكتُبُ عليها وَالكُرْسِيُّ... كلُّ شيءٍ لا يزالُ كما كانَ. مَيَّزَ "سامرٌ" أغراضَهُ، ونظرَ صامتًا مُدَّةً قصيرةً حَتّى استعادَ أنفاسَهُ؛ ثُمَّ لم يَلْبَثْ أَنْ قالَ في نَفْسِهِ: «عندَما أَحْلُمُ يكونُ لأَحلامي معنًى خاصٌّ. فماذا يَعني هذا الحُلْمُ؟»

ما قالَ "سامرٌ" ليسَ غريبًا. فأحلامُ الناسِ عادةً لا معنى مُحَدّدًا

لها، أمّا "سامرٌ" فَقَدْ كانَتْ له مَوْهِبَةٌ خاصّةٌ، قُوَّةٌ خاصَّةٌ إذا شِئْتَ: إِنَّهُ قادِرٌ على أَنْ يَدْخُلَ أحلامَ الآخرينَ ويُساعِدَهُمْ إذا كانوا بحاجةٍ إلى مساعدةٍ. بَلْ أَكْثَرُ، كانَ قادرًا على أَنْ يصنعَ لهم أحلامًا تُساعِدُهُمْ في إيجادِ حُلولٍ لِمَشاكِلِهِمْ. نَعَمْ، هذهِ مَوْهِبَةٌ فَريدةٌ مِنْ نَوْعِها مَلَكَها "سامرٌ" منذُ وِلادَتِهِ، وَلَمْ يعرِفْ بها إلّا بَعْدَ أَنْ بَلَغَ السادسةَ مِنْ عمرِهِ

تقريبًا، أي منذُ حَوالى ثَلاثِ سَنَواتٍ، عندما كانَ صديقُهُ "وليدٌ" الَّذي يحبُّهُ كثيرًا يُواجِهُ مُشْكلَةً لا يَعرِفُ أَنْ يَتَخلَّصَ منها، تُزْعِجُهُ جدًّا وتَسْكُنُ خواطِرَه... زارَهُ "وليدٌ" ذلكَ اليومَ، ونامَ عِنْدَهُ، مَعَهُ في غرفتِهِ. كانَ "سامرٌ" ينظرُ إليهِ وهوَ نائمٌ، ثُمَّ رَقَدَ هُوَ، وإذا بهِ، بَعْدَ أَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ قليلاً، يَجِدُ نَفْسَهُ كأنَّما يدخُلُ عَقْلَ رفيقِهِ عَبْرَ دِهليزٍ

قَصيرٍ، ويَزورُ ذاكرتَهُ. نَظَرَ حَوْلَهُ:
كانَ كلُّ شيءٍ يَتَحَرَّكُ في صُوَرٍ...
صُوَرٌ كأنَّها لوحاتٌ مُعَلَّقَةٌ على
جُدرانٍ. صُوَرٌ هيَ حياةُ "وَليدٍ"
بمراحِلِها... مُنْذُ أَنْ كانَ طِفْلاً،
حتّى كَبُرَ ودخلَ المدرسةَ، حتّى
يومِهِ هذا. كلُّ شَيْءٍ في ذاكرةِ
صديقِهِ مَحفوظٌ في صُوَرٍ... نَظَرَ
"سامرٌ" جيّدًا يتأمَّلُ الصُوَرَ التّي تَراها
عينُهُ بِدَهْشَةٍ وذُهُولٍ. تَقَدَّمَ قليلاً

فَرَأى صورةً مَهيبَةً: كانَتْ ذِئْبًا
مُخيفًا فاتِحًا فَمَهُ. حَدَّقَ به "سامرٌ".
هيَ صورةٌ ثابتةٌ، لا تَتَحَرَّكُ. تَقَدَّمَ
منها. انْتَزَعَها وَمَزَّقَها، وآخْتارَ
إحدى الصُوَرِ الجميلةِ التي حَوْلَهُ:
صورةَ زهرةٍ بيضاءَ تَتَفَتَّحُ رُوَيْدًا
رُوَيْدًا، وَوَضَعَها مكانَ صورةِ
الذِئبِ الَّتي أتْلَفَها. ثُمَّ تَسَلَّلَ شيئًا
فَشيئًا إلى الدِهْليزِ الذي جاءَ مِنْهُ،
وَخَرَجَ. عادَ إلى حيثُ هُوَ لِيَجِدَ

نَفْسَهُ في سَريرِهِ ينظُرُ إلى رفيقِهِ النائمِ. لم يَسْتَوعِبْ "سامرٌ" ما حَصَلَ لِلوَهْلةِ الأُولى. كانَ كأنَّهُ يخرُجُ مِنْ حُلْمٍ، ولكنَّهُ يَعْرِفُ أنَّهُ ليسَ حُلْمًا. أمّا صديقُهُ النائِمُ فهوَ الَّذي يَحْلُمُ. نَظَرَ إليهِ مُجَدّدًا. رأى بَسْمَةً رَقيقةً تَرْتَسِمُ على فَمِهِ...

وفي اليومِ التالي استيقظَ رفيقُهُ بإحساسٍ غريبٍ. قالَ لـ "سامر":

«أتَعْرِفُ يا صَديقي، لَقَدْ حَلِمْتُ حُلْمًا جَميلاً. رَأيْتُ ولدًا مِنْ عُمْري، لم أتبَيَّنْ مَلامِحَهُ، يَقُودُني إلى بُستانٍ من الوَرْدِ الأَبْيَضِ، ثُمَّ يَخْتَفي وَيَتْرُكُني هُناكَ. وعندَما آستيقَظْتُ أَحْسَسْتُ بِنَفْسي مُخْتلفًا. غَريبٌ! لم أَعُدْ أَشْعُرُ بالتَعاسَةِ، بَلْ على العكسِ، أُحِسُّ بِفرَحٍ غامضٍ يَطيرُ بي...»

وابتسمَ "سامرٌ". لَقَدْ تَأَكَّدَ عِنْدَذاكَ أنَّ ما حَدَثَ لَهُ في الليلةِ الماضيةِ لم يكنْ حُلْمًا، واكتشفَ أنَّ لَهُ قُدْرةً على دُخولِ عُقولِ الآخرينَ وَصُنْعِ أحلامٍ لهمْ، أحلامٍ جميلةٍ تُسْعِدُهُمْ وتذهَبُ بتعاسَتِهِمْ.

اكتشفَ أنَّهُ... صانِعُ أحلامٍ!

- ٢ -

عادَ "سامرٌ" منَ المدرسةِ مُفكِّرًا... لَقَدِ ٱلْتَقى "ساميةَ" صديقتَهُ. قالَتْ لَهُ إنَّ قريبَةً لها تُوُفِّيَتْ، وإنَّ الحزنَ عَلَيْها لا يُفارِقُها، فَهِيَ لم تعدْ تَستطيعُ النومَ، وَلا تَتَمكَّنُ من الأَكْلِ جَيّدًا، بَلْ

كانَتْ لا تَشْتَهي الأَكْلَ مُنْذُ أَنْ
عَلِمَتْ بِخَبَرِ وَفاتِها. وَهِيَ حَزينةٌ
بٱسْتِمرارٍ، عاجِزَةٌ عن الخُروجِ مِنْ
تَعاسَتِها. قالَتْ لَهُ إنَّ حُزْنَها يُرافِقُها
إلى كُلِّ مَكانٍ: إلى المَدْرَسَةِ،
وَالبيتِ، وَيُقيمُ مَعَها في غُرفَتِها،
وفي أفكارِها، وفي أَحْلامِها أَيضًا!
لا تَقْدِرُ أَنْ تَهرُبَ مِنْهُ. وبسُرعةٍ،
فكَّرَ "سامرٌ": إِذَنْ هذا هو مَعْنَى
حُلْمِهِ الَّذي رآهُ وَسمِعَ فيهِ صوتَ

صديقتِهِ هاتِفًا لَهُ في الظَّلامِ. "سامِيةُ"
تُريدُ المساعدةَ!

عندئذٍ قرَّرَ "سامرٌ" أن يُساعِدَها.
وَهُوَ قادِرٌ على ذلك بمَوْهِبَتِهِ
الفَريدةِ. إذا تَمكَّنَ مِنْ أَنْ يَجعَلَها
تَنامُ أَوْ تُغْلِقُ عَيْنَيْها قليلاً ٱستطاعَ أَنْ
يَدْخُلَ ذاكرَتَها وَيُخلِّصَها من صُوَرِ
تَعاسَتِها، وَيَصْنَعَ لَها حُلْمًا جميلاً.
وَلَكِنْ كيفَ السَّبيلُ إلى جَعْلِها تُغْلِقُ
عَيْنَيْها أمامَهُ؟

فَكَّرَ "سامرٌ" قليلاً. قالَ في نفسِهِ: «أَزورُها في مَنْزِلِها، وَأَتحَيَّنُ الفُرْصَةَ لِجَعْلِها تُغْمِضُ عَينَيْها كأنَّما لِتَرْتاحَ، وَأَتَسَلَّلُ إلى ذِهْنِها فَأَصْنَعُ لها الحلمَ، وأُخَلِّصُها مِنْ تَعاسَتِها. غدًا في المَدْرَسةِ أُخْبِرُها بأنّي سآتي لِزيارَتِها، لأنَّ بَعْدَ غدٍ نَهارُ عُطْلَةٍ...»

نامَ "سامرٌ" على هذا القرارِ. ارتاحَ لأنَّه سَيُساعِدُ صديقَتَهُ، فهوَ

يُحِبُّ أن يُساعِدَ الآخرينَ، ولا سِيَّما أصدقائِهِ إذا كانوا في مشكلةٍ. الحمدُ للَّهِ أَنَّهُ صانعُ أَحلامٍ. الحمدُ للَّهِ أَنَّ لَهُ قدرةً على مُساعدَةِ الآخرينَ. قالَ في نفسِهِ: «إنَّها قُدرةٌ على المحبَّةِ. أنا قادرٌ على المَحَبَّةِ بقوّةٍ. ما أَرْوَعَ هذا!»

في اليومِ التالي، ٱلتقى "سامرٌ" صديقَتَهُ في المدرسةِ. قالَ لها: «يا "ساميةُ"، هلْ يُمْكِنُ أن أزورَكِ في منزلِكِ اليومَ بعدَ المدرسةِ؟»

«ـ لَيتكَ تفعلُ أَكُنْ مسرورةً جدًّا». قالَت له "سامية".

وهكذا كانَ. بعدَ أَنْ عادَ كلٌّ منهما إلى منزلِهِ، وتناولَ الطَعامَ وارتاحَ، انطلقَ "سامرٌ" إلى بيتِ "ساميةَ" في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظُهْرِ، واستقبَلَتْهُ بابتسامةٍ. وبعدَ أَنْ سَلَّمَ على أَهلِها، وَتَحَدَّثوا جَميعًا، قالَتْ لَهُ "ساميةُ": «هَلْ تُريدُ أَنْ نلعبَ في الحديقةِ؟»

«ـ بالطَّبعِ.»

وانطلقا إلى الحديقةِ، وَهَمَّا باللَعِبِ، تارةً يركُضانِ، وتارةً يضحَكانِ... ولكنَّ "سامرًا" كانَ يَرَى دائمًا في وجهِ "ساميةَ" حزنًا مُخبَّأً، لا تَسْتطيعُ أَنْ تُخْفِيَهُ عَنْهُ بِضِحْكاتِها، ولا بِفَمِها الَّذي يبتسمُ باستمرارٍ. لا شَكَّ في أنَّ هذا الحزنَ عميقٌ جدًّا في نفسِها. «سَأُساعِدُها»، قالَ "سامرٌ"،

«سأُحَرِّرُها من حزنِها. ولكنْ لا بُدَّ لي مِنْ أَنْ أجعَلَها تُغْلِقُ عينَيْها.»

وَتَوَقَّفَ الولدُ عن الرَكضِ.

اقتربَتْ مِنْهُ "ساميةُ"، وقالَتْ: «لماذا تَوَقَّفْتَ؟ أَتعِبْتَ؟» قالَ لها: «لا. ولكنِّي أريدُ أن نجلِسَ قليلاً. أُخْبرُكِ بأمرٍ ما.»

جلسَتْ "ساميةُ" على حافَةِ الحديقةِ الحجريَّةِ. نظرَتْ إليهِ مُتسائلةً: «ماذا تُريدُ أَنْ تقولَ لي؟»

قالَ "سامرٌ": «تعالَيْ نَلْعبْ لعبةً جديدةً. يُغْلِقُ كلٌّ منّا عينَيْهِ، وَيَحْلُمُ بأُمنيةٍ جميلةٍ يتمنّاها. ثمَّ يُخبِرُ الآخرَ بها.» فقالَتْ "ساميةُ": «لا بأسَ. هَيّا نَفْعَلْ ذلكَ.»

وما إنْ أقفَلَتْ "سامية" عينَيْها حتّى فَعَلَ "سامرٌ" مثلَها، وبدأَ يدخُلُ إلى ذهنِها... مرَّ بالسِرداب القَصيرِ، ثُمَّ وَصَلَ إلى اللَوحاتِ. نظرَ بإمعانٍ إلى كلِّ لوحةٍ حولَهُ

باحثًا عَنْ تلكَ التي يَكْمُنُ فيها حُزنُها. تَلَفَّتَ. اتَّجَهَ نحوَ الأمامِ... ها هيَ: إِنَّها صورةُ دُبٍّ أَسودَ، فاتحٍ فمَهُ بشكلٍ مُخيفٍ، كأنَّهُ يَهُمُّ بأنْ يأكلَ أحدًا. إنّها حقًّا صورةٌ مُخيفةٌ!

تناولَ "سامرٌ" هذه الصُورةَ، ومزَّقَها، وأَلقى بها أرضًا. نظرَ حولَهُ. ماذا يَضَعُ لَها مكانَ هذه الصورةِ البَشِعَةِ؟ أيَّ حُلْمٍ جَميلٍ يصنعُ لصديقتِهِ؟ فكَّرَ قليلاً، ثُمَّ رأى

أَنْ يجعلَها تطيرُ مُحَلِّقَةً في سماءٍ منَ النُورِ. جعلَ لها أَجْنِحةً. صَوَّرَ الأجنحةَ بإصْبعِهِ فظهرَتْ أمامَهُ صورةٌ جميلةٌ لها إطارٌ كباقي الصُوَرِ التي حولَهُ. وَضَعَ وردةً في شَعْرِ "ساميةَ"، صَوَّرَ حولَها غيومًا بيضاءَ، وطُيورًا تَتَلَفَّتُ إليها، عصافيرَ منْ كلِّ الألوانِ تنظُرُ إليها كأنَّما تَحْتَضِنُها بِبَسْماتِها الجَميلةِ...

ولكنْ، فيما كانَ "سامرٌ" داخلَ ذِهْنِ صَديقتِهِ يَخْلُقُ لها هذا الحلمَ، ظَهرَتْ له صورةُ امرأةٍ جميلةٍ، شقراءِ الشَعرِ، بَيْضاءِ البَشَرَةِ، عَسَليَّةِ العينَيْنِ، وقالَتْ لهُ: «"سامرُ"، انتبِهْ يا عزيزي، لا تُكْثِرْ من آستعمالِ موهبَتِكَ. عليكَ ألّا تُفْرِطَ في استعمالِ قوّتِكَ لأنَّ هذا يُمكنُ أَنْ يُؤثِّرَ فيكَ.» كانَتِ المرأةُ كأنَّها خارجةٌ مِنْ ذهنِ "سامرٍ". قالَ لها:

«لماذا؟»

«ـ لأنَّ كلَّ حلمٍ تُسْعِدُ به الآخرينَ تأخُذُهُ مِنْكَ. مِنْ نَفْسِكَ. ويُمكنُ في النهايةِ ألاّ تعودَ أنتَ مِنْ أحلامِكَ. انتبهْ يا "سامرُ"، فَلَكَ تِسْعَةُ أحلامٍ فَقَطْ تُنْقِذُ بها سعادةَ مَنْ تُحِبُّ، بِقَدْرِ سِنِي عُمْرِكَ، كلُّ حلمٍ لِسَنَةٍ مِنْهُ، ولكنَّكَ لا تستطيعُ أَنْ تصنعَ أكثرَ وإلّا كانَ الخطرُ كبيرًا عليكَ...»

لم يُرْهِبْ "سامرًا" هذا الكلامُ. وَاخْتَفَتِ المرأةُ الجميلةُ. وعادَ "سامرٌ" مِنْ حُلْمِ صديقتِهِ، وفتحَ عينَيْهِ. نَظَرَ إلى "ساميةَ". كانَتْ لا تزالُ مُغْمَضَةَ العينَيْنِ. يبدو أنَّها تفكّرُ بعمقٍ. شَفتاها ارتسمَتْ عليهما ابتسامةٌ. ثُمَّ... فَتَحَتْ عينَيْها. نظرَتْ إليهِ والبسمةُ لا تُفارقُها، وقالَتْ: «ما أروعَ هذا الحُلْمَ! أَتُصَدِّقُ أنّني حلمْتُ في

هذهِ اللَحظةِ بأنَّني أطيرُ في الفضاءِ، محلّقةً بأجنحةٍ بيضاءَ، والعصافيرُ تُرفرِفُ مِنْ حَوْلي، وَتُغَرِّدُ لي بينَ الغيومِ. كان المنظرُ رائعًا. والأَرْوَعُ هو أَنّني لم أَعُدْ أشعُرُ بالحزنِ. لَقَدْ حلمْتُ بالفرحِ، وها أنا فَرِحَةٌ. كانَتْ أُمنيتي، يا "سامرُ"، أَنْ أتخلّصَ مِنْ حُزني. ويبدو أنَّها تَحَقَّقَتْ!»

ابتسمَ سامرٌ، وقالَ لها: «هذا أمرٌ رائعٌ! أَرَأيْتِ يا "ساميةُ"، لقد نجحَتْ لعبتُنا.»

«ـ وأنتَ؟ ماذا تَمَنَّيْتَ؟»

«ـ تَمَنَّيْتُ أن تخرُجي من حزنِكِ، وها خَرَجْتِ منه. لَقَدْ تحقَّقَتْ أمنيةُ كلٍّ منّا.»

«ـ حلمتُ أيضًا بأنَّ ولدًا في حلمي، لَمْ أَتَبَيَّنْ وجهَهُ، يرسمُ لي هذهِ الأحلامَ، ويُطْلِقُني في الفضاءِ، ويأخذُ منّي تَعاستي وحزني، ويُمَزِّقُهما كالصُورةِ.»

لم يُجِبْ "سامرٌ". كان يعرفُ مَنْ هو هذا الولدُ! كان عزاؤُه أنَّ صديقَتَهُ اسْتَرْجَعَت هناءَها وفرحَها. لقد صنعَ لها حلمًا مُخَلِّصًا. ما أهمَّ الأحلامَ! يمكنُ أن تُغيِّرَ حياةَ الناسِ إذا عَرَفوا كيفَ يَحلمونَ!

- ٣ -

ومـرَّ الـزَمـنُ... كـانَ "سـامـرٌ" يَكْبَرُ، وكانَتْ مَقْدرتُه على صُنْعِ الأحلامِ وإسْعادِ الآخرينَ تُرافقُهُ في نُـمُـوِّهِ مِنْ غيرِ أنْ تَتَغيَّرَ. يَذْكُرُ أنَّهُ ساعَدَ بعضَ أصدقائِهِ في التَخلُّصِ مِنْ هُـمـومِـهِـمْ بِصُنْعِ أحلامٍ لَهُمْ.

يذكُرُ مرّةً أنَّه، دخلَ ذهنَ أَحَدِهِمْ
عندَما كانَ يعاني فُقْدانَ والدِهِ،
فَحَوَّلَ أحزانَهُ فَرَحًا، وَمَزَّقَ في ذِهْنِه
صورةَ خَفّاشٍ كَبيرٍ، مُخيفٍ، ورَسَمَ
لَهُ مكانَها صورةَ مَلاكٍ صَغيرٍ،
يحملُ نايًا يَنْفُخُ بهِ في فضاءٍ مِنَ
الزُهورِ، يُحيطُ به النُورُ، وَتُحرِّرُ
ألحانُهُ الناسَ مِنْ أحزانِهِم. كلُّ مَنْ
حَوْلَ هذا الملاكِ كان يَتَحَرَّرُ مِنْ
هَمِّهِ. وعندَما استيقظَ صديقُهُ أخبرَهُ

بِأَنَّه حَلُمَ بهذا المَلاكِ، وبأنَّ ولدًا
صغيرًا ظَهَرَ في حُلْمِهِ، لم يَتَبَيَّنْ
ملامِحَهُ، أخَذَ بيَدِهِ وأَجْلَسَهُ قُرْبَ
هذا الملاكِ، فَسَمِعَ صوتَ نايِهِ،
وخَطَفَهُ الصَوْتُ إلى سَماءٍ مِنَ
الفَرَحِ الواسعِ، عادَ بعدَها مِنَ الحُلْمِ
وقَدْ تَخَلّى عَنِ الحُزْنِ، وأَحَسَّ
بسعادةٍ لا مَثيلَ لها.

ويذكُرُ أنَّهُ خَلَّصَ خالَه "نَجيبًا"
مِنْ أحزانِهِ أيضًا، عندَما خَسِرَ مالاً

كَثيرًا في تِجارَتِهِ، فكادَ أَنْ يَمْرَضَ
لِشِدَّةِ الحُزْنِ. دَخَلَ ذِهْنَهُ، وَمَزَّقَ
صورةَ الضَبُعِ الرَهيبةَ الَّتي كانَتْ
تنخرُ فِكْرَهُ، وَوَضَعَ مَحَلَّها صورةَ
صَبيَّةٍ، تُشبِهُ بِنْتَ خالِهِ "لَميسَ"،
تلعَبُ في بستانٍ مِنَ الزُهورِ
المُلَوَّنَةِ، وَحَوْلَها العصافيرُ على
أنواعِها تُناغيها بأصواتِها الجميلةِ،
وهيَ تنظُرُ مِنْ بعيدٍ إلى "نجيبٍ"
وتَبتسمُ له من غيرِ أَنْ تقولَ شيئًا،

ولكنَّ ابتسامَتَها كانَتْ تبوحُ لهُ
بأسرارِ الفَرَحِ العميقِ، بأسرارِ
الغِبْطةِ، فتُريحُهُ من هُمومِهِ، وتُعَزّيهِ.
وَرأى أيضًا في حلمِهِ هذا، ولدًا
صغيرًا، لم يَتَبَيَّنْ ملامِحَهُ، يأخُذُهُ
بِيَدِهِ الصَغيرةِ إلى حيثُ يرى تلكَ
الطِفلةَ، ويُجلِسُهُ بقربِها، فَتَمْسَحُ لهُ
خدَّه بيَدِها، وتُقَبِّلُهُ على جبينِهِ،
وتَغْمُرُهُ بِحَنانٍ...

لكنّ "سامرًا"، في خِلالِ هذا الوقتِ، كانَ يشعُرُ بأنَّهُ يستَنْفِدُ نفسَهُ... كان يُحِسُّ ببعضِ التَعَبِ متى استعملَ مَقْدِرَتَهُ في صُنْعِ الأَحلامِ. ومعَ ذلكَ كانَ سَعيدًا: فالسَعادةُ، عندَهُ، هيَ في أَنْ تُسعِدَ الآخرين، أوْ، على الأقلِّ، في أَنْ تُساعِدَهُمْ للتَغلُّبِ على هُمومِهِمْ، حتّى وَلَوْ كَلَّفَكَ ذلكَ شيئًا مِنْ نفسِكَ.

وهنا كانَتِ التَجْرِبَةُ قاسيةً: فَقَدْ مَرَّتْ ببيتِ "سامرٍ" فاجعَةٌ. تُوُفِّيَتْ جَدَّتُه لأُمِّهِ. وكانَتْ أُمُّ "سامرٍ" شديدةَ التَعلُّقِ بوالدتِها. مَرِضَتْ. تَفاقمَ مرَضُها، ثُمَّ ماتَتْ... ما كانَ أَصْعَبَ تلكَ المرحلةَ! ما كانَ أَفْجَعَ وَقْعَ هذهِ الحادثةِ على "ليلى" أُمِّ سامرٍ! دَفَنُوا الجَدَّةَ وعادوا إلى البيتِ. كانَ جوُّ الحزنِ مَهيبًا، والناسُ يأتونَ لِتَعْزِيَةِ المَفْجوعينَ.

مرَّ اليومُ الأوَّلُ ولم يَتَوَقَّفْ سَيْلُ المُعَزِّينَ... حتّى الثامنةِ مساءً... بعدَ ذلكَ قالَ "عزيزٌ"، والدُ "سامرٍ" لزوجَتِهِ: «حاولي أَنْ ترتاحي قليلاً، يا "ليلى"، فَقَدْ تَعِبْتِ كَثيرًا... نامي باكرًا فَغَدًا سيكونُ يومًا طويلاً...» إنَّهُ زَمَنُ الحُزْنِ في بيتِ "سامرٍ"...

اِنْقَضَتْ أيّامُ التَعازي الثَلاثَةُ وَقَلْبُ "سامرٍ" يَتَقَطَّعُ لِرُؤْيةِ أبَوَيْهِ غارقَيْنِ في الحزنِ، ولا سيَّما أُمِّه.

صحيحٌ أنّهُ يشعُرُ بحزنٍ كبيرٍ لغيابِ جَدَّتِهِ، ولكنَّهُ خائفٌ على أُمِّهِ. إنَّها لا تكادُ تأكُلُ، ولا تَتَوَقَّفُ عَنِ البكاءِ، وهوَ يُراقبُها باستمرارٍ بِقَلَقٍ بالغٍ. هل يَتَدَخَّلُ لِيُريحَها على الرُغمِ مِنَ الخَطَرِ الكَبيرِ الَّذي يعرِفُهُ في حالِ فَعَلَ هذا؟ وَهَلْ يَستطيعُ ألّا يَفْعَلَ؟ وَلكِنْ ماذا عَنِ الخَطَرِ الَّذي يُهَدِّدُهُ في حالِ ساعَدَها؟ ماذا لو لم يَتَمَكَّنْ مِنَ الخُروجِ مِنَ الحُلْمِ كما قالَتْ لهُ تلكَ المرأةُ ذاتَ يومٍ؟

كانَ هذا الصِراعُ يُعذِّبُ نَفْسَه،
في أثناءِ كلِّ الأيّامِ الَّتي مرَّتْ...
وكانَ هو يَشْعُرُ بالحزنِ الشَديدِ،
عِلاوَةً على الحزنِ الَّذي كان يُحِسُّ
به لِمَوْتِ جَدَّتِه. ثمَّ قَرَّرَ...

«سَأُساعِدُ أُمّي مَهْما كَلَّفَ
الثَمَنُ.» قالَ في نَفْسِهِ. «ما قيمةُ
حياتي إذا كانَتْ هيَ تاعِسَةٌ
باستمرارٍ؟ كيف أَشْعُرُ بالسَعادةِ،

بَعْدُ، وهي تعيشُ في تعاسَةٍ
مستمرَّةٍ؟ سَأُساعِدُها.»

وَذَهَبَ إلى حَيْثُ كانَتْ أُمُّهُ
جالسةً. جلسَ قُرْبَها. عانَقَها، ثمَّ قالَ
لها: «ماما، أنا حَزينٌ مِنْ أَجْلِكِ.»

قالَتْ "ليلى" له: «لا يا سامرُ. لا
تحزَنْ. أنا حزينةٌ على أُمّي، ولكنَّني لا
أُريدُكَ أَنْ تحزَنَ أنتَ مِثلي... لا أُريدُ
أَنْ أحزنَ مرَّتَيْن. أنتَ صغيرٌ وأمامَكَ
حياةٌ طويلةٌ وتجارِبُ كثيرةٌ...»

وقـالَ "سـامرٌ" فـي نَـفْـسِهِ: «ما قيمةُ كُلِّ هذا إذا كُنْتِ أنتِ حزينةً؟ وكيفَ أَشْعُرُ بالسَعادةِ بَعْدُ؟ واللّهِ، يا أُمّـي، سـأُسـاعِـدُكِ لِـلـخـروجِ مِـنْ مِحْنَتِكِ مهما كَلَّفَني ذلكَ. وسأَبقى مَـعَـكِ إلـى الأبَـدِ...» ثُـمَّ فـكَّـرَ: لـو احتُجزَ في الحُلْمِ، فهل يَستطيعُ، بَعْدُ، أَنْ يبقى إلى جانِبِها؟ "سامرُ" لا يـعـرفُ الـجـوابَ، وسَـيَـقْـبَـلُ بالمخاطَرَةِ بهذا في سَبيلِ إِسْعادِها

ونَزْعِ تعاستِها. لَقَدْ صَمَّمَ على هذا ولن يُثْنِيَهُ عن قَرارِهِ أيُّ شيءٍ...

– ٤ –

كانَتْ ليلةً عاصفةً. المطرُ يتساقطُ بقوّةٍ، وحبّاتُ البَرَدِ تَنْقُرُ النّوافِذَ نَقْرًا لافِتًا، والرّيحُ تَصْفُرُ شديدًا وتَحْني رُؤوسَ الأَشجارِ وتَصْفَعُها، فَتَتَلوَّى أغصانُها، ويَتَطايَرُ بعضُ أوراقِها هنا وهناكَ.

الشـارعُ فـي الـخـارجِ غـارِقٌ فـي المِياهِ، والسَياراتُ تسيرُ بِبَطْءٍ خوفًا مِنْ أن تَتَعطَّلَ من شِدَّةِ الماءِ، ولأنَّ مَسّاحاتِها لا تكادُ تَستطيعُ، حتّى بِحَرَكَتِها السَريعةِ، أَنْ تُزيلَ المياهَ المُنْهَمِرَةَ على الزُجاجِ.

كانَ عددُ السَياراتِ ضَئيلاً، يَنظرُ إليها "سامرٌ" من نافذةِ غُرفتِهِ، ويُراقبُ المَطرَ. «إنَّهُ جُنونُ الطَبيعةِ»، قالَ في نفسِهِ، «أَتُراها

حزينةً هيَ الأُخرى على أُمّي؟» نظرَ بهدوءٍ كبيرٍ إلى المشهدِ العاصفِ.

أطالَ النَظرَ إلى الخارجِ. كانَ ينتظرُ نومَ أُمِّهِ، فهيَ في غُرْفَتِها، ولكنَّها تَأْرَقُ باستمرارٍ، ولا تكادُ تنامُ، وهذا يُؤثِّرُ في صِحَّتِها. صِحَّتُها تَتراجَعُ، وقَدْ هَزَلَتْ لأنّها لا تكادُ تأكُلُ منذُ أيّامٍ... "سامرٌ" يخافُ عَلَيْها، ويَخْشى أن يُصيبَها سوءٌ أُكبرُ. «لا يجوزُ أن تستمرَّ الحالُ

كَذلِكَ»، قالَ، «لا أستطيعُ أن أرى أُمّي هكذا. أُفَضِّلُ أَنْ أموتَ على هذا.»

تَسَلَّلَ خارجَ غرفَتِهِ. نَظَرَ إلى المَمَرِّ أمامَهُ: إنّهُ فارغٌ. أبوهُ يُشاهِدُ التِلفازَ، ووالدَتُهُ في غُرفَتِها. اتَّجَهَ نحوَها. فَتَحَ البابَ. نظرَ فرآها على سريرِها. اقتربَ منها. رَفَعَتْ رأسَها، وَنَظَرَتْ إليهِ، ثمَّ قالَتْ لَهُ: «ماذا تُريدُ يا عزيزي؟»

قالَ "سامرٌ": «أريدُ أن أتمدَّدَ قربَكِ قليلاً يا ماما.»

فَأَفْسَحَتْ له في المجالِ قربَها، فتَمَدَّدَ، وعانقَها، وقالَ لها: «ارتاحي قليلاً يا ماما، فأنتِ لا تَنامينَ.» قالَتْ لَهُ: «كَلامُكَ يُشْبِهُ كلامَ أبيكَ، يا "سامرُ". لا تَخَفْ، أنا بخيرٍ، وَأَنامُ بشكلٍ طَبيعيٍّ.»

كانَ "سامرٌ" يعرفُ أنَّ هذا ليس صحيحًا، وأنَّ أمَّه تُطَيِّبُ خاطِرَه

لكي يَرتاحَ ولا يَقْلَقَ عليها؛ ولكنَّهُ يعرفُ أنّها لا تنامُ، ولا تأكلُ جيّدًا، وصِحَّتُها تَتَدهْوَرُ.

قالَ لها: «إذَنْ دعيني أرَكِ تَنامينَ قليلاً يا ماما قبلَ أَنْ أخرُجَ إلى غُرفَتي لأُصدِّقَكِ. أَقْفِلي عَيْنَيكِ وَارتاحي.»

فَأَقْفَلَتْ أُمُّهُ عينَيْها، وكانَ هذا ما يُريدُهُ... فَأَقْفَلَ عينَيْهِ بِدَوْرِه، وَنَفَذَ إلى أحلامِها. مرَّ بدِهْليزٍ

طويلٍ، مُظلمٍ، في آخرِه يظهَرُ نورٌ شَحيحٌ. اقتربَ منهُ، مِنْ آخرِ هذا الدِهليزِ، فإذا هوَ في غرفةٍ مليئةٍ باللَوحاتِ والصُورِ، شاعِرًا بمُيُوعَةِ أرضِها كأنَّها مِنْ وَحْلٍ... حاذَرَ في مَشْيِهِ. نظرَ مِنْ حولِهِ إلى الصُوَرِ واللَوحاتِ. كانَ أكثرُها غيرَ واضحٍ، كأنّهُ ينظُرُ إليها وهيَ في قاعِ ماءٍ. لا أَشْكالُها ولا أَلْوانُها واضحةٌ، ولا ما فيها مِنْ مَشاهِدَ...

كلُّ ما حولَهُ ليسَ واضحًا. وإذا أمامَهُ درَجٌ طويلٌ، شديدُ التَعرُّجِ، صَعْبُ الصُعودِ. اتَّجَهَ نحوَهُ كأنَّ شيئًا يَدْفَعُهُ إلى هذا. صَعدَ بحَذَرٍ شَديدٍ. كانَتْ بعضُ درَجاتِهِ مُتَكَسِّرَةً، تَعوقُ صعودَهُ، ولكنَّهُ صَمَّمَ على الوُصولِ. وَبَعْدَ جُهْدٍ وَصَلَ إلى فَوْق. كانَ أمامَهُ ما يُشْبِهُ الغرفةَ الصَغيرةَ المُدَوَّرةَ، وفي وَسَطِ جِدارِها الدائريِّ مِنْ حَوْلِهِ لوحةٌ.

أمامَهُ مباشرةً. أمامَ عينَيْهِ. اقتربَ مِنْ هذهِ اللَّوحةِ. كانَتْ لوحةً رهيبةً: صورةُ تِنِّينٍ رهيبٍ، كبيرٍ، يُحاولُ أنْ يَلْتَهِمَ امرأةً، والمرأةُ، تَحْتَهُ، تُقاوِمُ بِجِسمٍ مَليءٍ بالجراحِ. كانَ وجهُ تلكَ المرأةِ يُشبهُ وجهَ أُمِّهِ، ولكنَّهُ غيرُ واضحٍ تمامًا، ومَعَ ذلكَ، ميَّزَ فيه "سامرٌ" ملامحَ الخوفِ. كانَتِ المرأةُ خائفةً مِنْ هذا التِنِّينِ، وكانَتْ عينا التِنِّينِ المُخيفَتانِ ثابِتَتَيْنِ باتِّجاهِ

عيني المرآةِ، يَتطايرُ منهما الشرُّ... التِّنِينُ أمامَهُ يُريدُ أَنْ يَلْتهمَ المرآةَ!

تَقَدَّمَ "سامرٌ" من اللَوحَةِ. ٱنْتزَعَها. كَسَّرَها. سَحَقَها بِرِجْلَيْهِ. ثمَّ فكَّرَ: ماذا سَيَضَعُ مَكانَها؟ قالَ في نفسِهِ: «أَرْسُمُ صورةً فيها ملاكٌ صغيرٌ يَحْمِلُ وَجهي، وَيُعانِقُ أُمّي.»

وهكذا، مدَّ "سامرٌ" إِصْبَعَهُ، ورَسَمَ... كانَ الملاكُ جَميلاً جدًّا، يَحْمِلُ على كتِفَيْهِ جانِحَيْنِ

صغيرَيْنِ، وينظرُ بنظراتٍ بريئَةٍ إلى وجهِ أمِّهِ المُشْرِقِ، كأنّهُ يقولُ لها: «أنا لَنْ أَبْخَلَ عليكِ بشيءٍ لأنَّني أُحِبُّكِ. ولَنْ أَترُكَكِ تُعانينَ وحدَكِ.»

لكنَّ المشكلةَ التي نُبِّهَ إليها "سامرٌ" حَصَلَتْ: لم يَعُدْ بإمْكانِهِ الخروجُ مِنْ هذا المكانِ. لَقَدْ عَلِقَ في حُلْمِ أُمِّهِ! حاولَ أن ينزِلَ الدَرجَ المُتَعَرِّجَ. وَقَفَ أمامَ الدهليزِ

المُظلِمِ... عَبَثًا. كانَتِ الطَريقُ مَسْدودةً، ولا مجالَ للخُروجِ. ولكنْ، فجأةً، حَدَثَ ما لم يَكُنْ في الحُسْبانِ: فَقَدْ أضاءَ المكانَ نورٌ شَعَّ من قلبِ "سامرٍ". تحوَّلَ الدِهليزُ والغُرفةُ المُلاصِقةُ لهُ إلى حديقةٍ مِنَ الزُهورِ الرائعةِ الَّتي يَعُمُّها الضَوءُ. تَحَوَّلَتْ نفْسُ أُمِّهِ إلى هذهِ الحديقةِ الغَنّاءِ. لَقَدْ تَمَكَّنَ "سامرٌ" مِنْ أنْ يَمْحُوَ تعاسَةَ أُمِّهِ، فَرَدَّ لها البَهْجَةَ

والسَعادةَ؛ وعَرَفَ أنَّه بَقِيَ في حُلْمِها، لا يُفارِقُ عَيْنَيْها، مدى الحياةِ...

الفهرس